معجزة

فيفي جابر

«قاع.. قمة.. قاع»..

هو فتى الحب البائس دوما، ولا يسع أحدهم أن يكون منافسا له.. كم تمنى لو أحدهم فعل!

جسده النحيل ووسامته الضئيلة كانا يزيدان أموره العاطفية تعقيدا!

أتم عامه السابع والعشرين دون أن يبدأ قصة حب تضيء ليله وتؤنس غربة قلبه..

كان روتينه اليومي أحيانا يحمله لقضاء أيامه وأحيانا أخرى لا يحتمل فتفيض روحه بالضجر.

يوميا كان يستيقظ في نفس الموعد، يتعاطى حمامه الساخن كالمعتاد صيفا وشتاء، ثم يرتدي ملابسه على عجل ويتناول إفطاره الذي تعده له والدته قبل خروجها لوظيفتها في الصباح الباكر: كوب من الحليب عليه أن يعيد تسخينه لأن مذاقه البارد سيعكّر عليه متعة احتسائه، بيض مسلوق، وجبن مثلثات، ومربى المشمش المفضلة وقشدة وخبز الفينو الطازج..

لا عليه سوى أن ينتهي من إفطاره ويخرج للعمل..

موعده عند تمام الحادية عشرة، لكنه يعمل بهذا المكان منذ ستة أعوام ولن يحدث خلل إذا وصل في الحادية عشرة والربع!

تولى مسئولية فتح المحل منذ سنوات، متجر للعطور وأدوات التجميل

obeikan.com

وكل ما يلزم النساء، يضج يوميا بالمئات منهن، نساء من مختلف الأعمار والأشكال والطباع.

«هو» بائع للنساء، لكنه عجز عن العثور على واحدة فقط يمكنها أن تمنحه ما يتوق إليه..

لم يكن مثل أولئك الرجال العابثين اللاهثين وراء علاقات عابرة لا مستقبل لها؛ فهو رجل يقدس المرأة ويحترم الحب، ولم يعبأ كثيرا لافتقاره الوسامة التي تؤهله لسقوط الجميلات في شباكه، وإنما «هو» لم يجد في هؤلاء النسوة من تسترعي انتباهه أو تستحق الالتفات لها..

إلى أن حلت عليه، ذات يوم، الـ«معجزة»، وأضاءت بوهج حضورها ذلك الركن المعتم في روحه، بضحكتها الرقيقة وروحها الدافئة، ورشاقة ظلها، كانت «هي»..

وكان «هو» على شفا فقدان الأمل في ظهورها، لكنها قد حانت!

جاءت الكلمات بينهما قليلة، رشيقة، تلقائية، مثل حواراته التي تدور بينه وبين عميلاته عادة على مدار اليوم، لكن «هي» كانت عميلة من طراز فريد..

سألته أن يحضر لها عطرا إذا جاز الوصف لم تسبقها إليه امرأة أخرى وإن أمكن لا يبيعه لغيرها!

وحرصت أن يكون على علم بمدى أهمية تفرد الأشياء بالنسبة لها، وأكدت له أنها لا تحب أن تشبه سوى نفسها..

لم يتردد في إبداء إعجابه بحرصها على تفردها وكاد ينفلت ويعترف بتلك الهزة التي أوشكت على سقوطه بين يديها، لكنه تمالك قوته في اللحظة الأخيرة..

تكررت زياراتها، أصبحت عميلة دائمة للمتجر، هي تطلب ما يخطر لها وهو لا يبخل في تقديم العون، كانت بمثابة تحفة فنية متقنة الإبداع، وروحها تفيض سحرا.. وما كان ذلك إلا ليزيده اعتناقا!

وهكذا، شيئا فشيئا تغير بالفعل، الأيام التي تلت تلك الواقعة كان لها مذاق مختلف، مذاق أشهى، مذاق له بريق..

فعاد إلى حماسه القديم، ليصل عمله في تمام الحادية عشرة، وتحول هذا الرجل إلى عاشق مفعم بالحب والحياة، والفضل للمعجزة!

وجاء اليوم الذي تلبدت فيه الغيوم..

أخبرته بأن مصيرها قد اقترن بمصير «عريس» أجبرها والداها على خطبتها له، لكنها أكدت له أنها لا تضمر لهذا «العريس» أي مشاعر وأنها لا ترجو سوى أن تتبرأ منه أبدا..

في نفس التوقيت الذي قد لملم فيه هذا العاشق قواه جمعاء على أن يصارحها بعشقه ونيته الخالصة في الاقتران بها، هبطت تلك الصاعقة!

لم تكن أي كلمات لتخفف عنه تلك التعاسة التي تملكت روحه، أو لتخمد تلك الصرخات التي ماجت بأعماقه، أو تعيده من ذلك التيه الذي جذبه وأوشك أن يودي به بعيدا..

لكنها للمرة الأولى أخبرته أنه منذ ظهوره في حياتها حظيت بالسعادة لأول مرة..

واعتبر «هو» تلك الكلمات وعدا خالصا بالحب!

مضى عام لم تنقطع فيه الصلة بينهما يوما، كانا يتبادلان الأحاديث الهاتفية ليلا على مدى هذا العام، ناهيك عن زياراتها غير المنتظمة للمتجر، توطدت صلتهما واتخذت أحيانا صيغة الصداقة، لتسهل لهما البقاء معا!

إلى أن تنحى الرجل الآخر يوما ما، ليتيح لهما الساحة، بعد أن فقد كل اهتمامه بامرأة لا تحرص على شيء سوى إظهار مشاعر رفضها له بكل إخلاص..

وأصبح على العاشق أن ينجز ما تم تأجيله، لكنها منعته بجدية من اتخاذ أي إجراء لارتباطه بها، ما أثار حزنه، لكنها فسرت منعها له بأن تلك الخطوة لن تكون الفكرة المثالية في ذلك التوقيت، في حين أنها أهدرت فرصة العمر

بخسارتها لخطيبها، والذي كان «العريس» المثالي في ظن والديها وأنه لن يكون مثله في ظنهما وبالتالي سيحظى بالرفض الذريع!

كان عليه أن يعاني مجددا، لكن تلك المرة كانت معاناة لا يمكنه إدراكها؛ لأن التعقيد تلك المرة ليس «عريسا» عليه أن يتغلب عليه ليفوز بها، وإنما عليه أن يقنع والديها بأنه الرجل المثالي الذي يأمنان على ابنتهما أن تكون معه، لكنها منعته من تلك المواجهة، حرصًا منها على عدم جرح مشاعره، وقد خشي أن يقدم على تلك المواجهة فيفقدها للأبد، وكان الموت أهون عنده من أن يفقدها..

ومضى عام آخر، تأرجح فيه على كل أسلاك الغرام، منحها ما ملكت يداه وروحه من حب وإخلاص وفداء..

وكانت «هي» هادئة.. موسمية.. مشرقة أحيانا.. غروبها غزير.. ولم يجعله ذلك يشك ولو للحظة في صدق حبها له، كان مخلصا حتى في إيجاد المبررات لغيابها الطويل، مكتفيا بالسعادة التي تغمره بها لحظة سطوعها المفاجئ.

لكنه صار عاشقا مكدسا بالخوف والقلق، وتلك الصيحات التي كان يكررها عقله بأن عليه أن يسارع في إيجاد السبيل لهذا الحب ليكون مباركا؛ لأنه لا يستحق إلا ذلك، كانت «هي» لا تترد في إخماد صداها داخله، وتتأكد من عدوله تماما عنها، ومن جديد تتلو عليه الأسباب التي تجعله «العريس» غير المناسب في ظن والديها، فـ«العريس» المناسب هو الذي أتم دراسته الجامعية وهو لم يفعل، وله حيز مرموق في المجتمع، وهو لم يكن كذلك، ولديه من الأموال ما يضمن بها لهما مستقبل ابنتهما الجامعية الجميلة التي يرغب فيها كل الرجال، وهو ليس كذلك!

ظلت حياته حياة تعيسة على الرغم من وجود الحب الذي تمناه والمرأة التي لطالما حلم بها وبقي شعوره بالاغتراب ملازما له كما كان شعوره بالوحدة ظله قديما، وكلاهما مر.. وموجع.. وقاسٍ.

ومضى العام الثالث وفيرا بالخيبات والغربة والصيحات المخمدة.. إلى أن

جاءته ذات نهار، تخبره بأنها آسفة، وتطلب منه أن يساعدها في انتقاء كل ما هو فريد لديه من أشياء ترغب فيها وكانت شقيقتها التي تصغرها بصحبتها لأول مرة، فلم يجرؤ على الحديث معها ويسألها: لماذا الأسف؟
لكنه سرعان ما ساعدها في انتقاء أشيائها الفريدة، وتركته بعدها وحيدا مهزوما..
وفي اليوم التالي جاءته شقيقتها بابتسامة وعلى استحياء، تطلب منه أن يساعدها في انتقاء ما يلزمها لسهرة خاصة الليلة..
عندئذ شعر بالوخز يهاجمه من كل اتجاه، فسألها: وماذا عن سهرة الليلة؟!
أجابته ولم يخلُ وجهها من علامات الأسى لعلمها كم سيشقى هذا العاشق:
«الليلة ليلة زفاف معجزة»..
أفقدته الصدمة الوعي للحظات، لكنه استرده مرة أخرى وهو مستغرق في تأمل وجه الفتاة وتحدثه نفسه:
«يا إلهي.. كم تشبهها»!

obeikan.com